يهوديت هرئيل(*)

إشكنازية بهوية شرقية

هاجرت إلى اسرائيل من القطاع الهنغاري في رومانيا، في سن العاشرة، في تموز ١٩٦١، وذلك في أوج الهجرة الجماعية من رومانيا والمغرب، المهاجرون القلائل الذين قدموا من الجزائر في نفس الفترة، غادر معظمهم بعد فترة قصيرة إسرائيل قاصدين فرنسا، بعدما أدركوا حقيقة ما يحدث هنا، في البلاد، ولامتلاكهم الإرادة والقدرة والوسائل اللازمة للمغادرة.

ليلة وصولنا إلى البلاد وضعونا مع مهاجرين من المغرب في «مَعْبراة» [مخيم سكني مؤقت] كريات ملاخي، لكننا وبفضل علاقات والدي مع أوساط المؤسسة الإشكنازية الحاكمة، لم نمكث في هذا المخيم سوى مدة أسبوع أو عشرة أيام، حيث إنتقلنا إلى سكن مخصص للأكاديميين في بئر السبع. لم نصادف في هذا المكان وجود أي مهاجر مغربي، كان الجميع من الإشكنازيين فقط ما عدا عائلة واحدة من أصل جزائري. وتحت ذريعة سكن للأكاديميين–رغم أن المتواجدين فيه لم يكونوا جميعاً من الأكاديميين–أُعطيت شروط بداية مفضلة ومميزة للمهاجرين الإشكنازيين ذوي المحسوبية والامتيازات.

هكذا بدأت الأمور. حصلنا على سكن موضّب، وإعانة معيشة إضافة إلى إمكانية لتعلم اللغة العبرية–لوالديّ–خلال ستة أشهر، ولم تكن لدينا أي دوا ع للقلق. في النتيجة أقمنا هناك في أجواء مريحة لاكثر من سنة. هذه الإمكانية لم تُمنح للمهاجرين من المغرب.

كان معهد تعلم اللغة في بئر السبع مجاوراً لـ«المعبراة»

* متخصصة في علم النفس التنظيمي، أقامت وتولت خلال السنوات الخمس الأخيرة ادارة شعبة تحسين الخدمات للسكان العرب في صندوق المرضى العام في اسرائيل.

وللحي السكني المخصص لذوي الامتيازات «القدماء» وأفراد قوات «البلماح»، هؤلاء هم الذين إحتلوا مدينة بئر السبع وسلبوا بيوت العرب فيها وحولوها إلى مساكن لهم، إضافة إلى البعض ممن شيدوا لأنفسهم منازل جديدة في نفس المنطقة التي سميت «شيكون دروم» وحي «رسكو».

التحقت بمدرسة الحي التي أطلق عليها اسم «متسادا» وكانت تضم في ذلك الوقت شعبتين للصف الرابع الابتدائي، الأولى جميع الطلاب فيها من الاشكنازيين و«الصابرا» القدماء، أبناء الـ May Flower(١). إضافة الى أبناء مهاجرين إشكنازيين من الخمسينيات. أما الشعبة الثانية من الصف فقد اقتصرت تماماً على الطلاب الشرقيين وخاصة من المهاجرين أو أبناء مهاجرين من المغرب وطرابلس (ليبيا) والذين أقاموا في مخيم السكن المؤقت وفي مشروع الاسكان الجنوبي («شيكون دروم»). في الوقت الحالي بات من المألوف نعت مثل هذا الترتيب أو النظام في توزيع السكن بـ«أبارتهايد». وبالمناسبة، فقد نَعَتَ الإشكنازيون «المعبراة» بنوع من الإزدراء والسخرية المكشوفة باسم «معبراة مامبو»(!)

كانت هناك بوابتان للمدرسة، إحداهما باتجاه حي «شيكون هـ» القديم، والثانية باتجاه «شيكون هـ النموذجي». وهكذا نشأ وضع في نهاية الدلالة والرمزية إذ بات من الواضح من هم الذين يأتون من البوابة الأولى ومن هم الذين يأتون من الثانية، بعبارة أخرى صار واضحاً من هو المحسوب علينا أو «منّا» وبالعكس.

كمهاجرة جديدة فقد أدخلوني، لحسن حظي، إلى شعبة الطلاب الشرقيين، وكان معي أيضاً ما بين ثلاثة أو أربعة مهاجرين إشكنازيين قدموا في الفترة نفسها. استقبلني زملائي في الصف بحفاوة ومعاملة ودية، ودعاني بعضهم الى بيوتهم كما جاءوا لزيارتي في المعهد، في ذلك الوقت لم يكن هناك معهد (أولبان) للأولاد، ولذلك جلس زملائي (في المدرسة) معي وساعدوني في اعداد وتحضير دروسي البيتية وفي تعلم اللغة العبرية، وليس هذا وحسب، فقد أرسل لنا آباؤهم– الخضارجي والجزار والبقال–إلى البيت ما نحتاجه من مواد غذائية وأطعمة في أمسيات السبت والأعياد.

بعد فترة من الوقت التحق بالمدرسة ولد–تلميذ–روماني صاحب «واسطة» بكون أقاربه محسوبين على قدماء المدينة، ولذلك وضعوه في الشعبة المخصصة للتلاميذ الإشكنازيين و«الصابرا» الذين إنتسبوا لحركة الشبيبة. في تلك الفترة كان الالتحاق بحركة الشبيبة يتم من الصف الرابع، لكن أحداً لم يدعني أو يشجعني على الانضمام للحركة.. ومع ذلك، فإنني وبعد إنضمامي للحركة لم أجد مكاني فيها.

خلال الاستراحات (المدرسية)، وعندما تحدثنا مع الطالب الروماني الجديد تبين لنا أنه يعاني من عزلة في صفه فما من أحد من زملائه في الصف يعبأ به أو يدعوه لمرافقته أو الجلوس معه. وقد بدا واضحاً الفرق الهائل في التعامل معه، مقارنة مع المعاملة الودية الدافئة التي كنا نحظى بها (المقصود هي ومن معها من تلاميذ إشكنازيين) في الصف المخصص للطلاب الشرقيين.

كنت صبية مرهفة وذات نظرة ثاقبة، ولم أك بحاجة لوقت طويل حتى أدرك مغزى ما يدور من حولي.

بداية شعرت أن «الصابرا» الإشكناز يحتقرون كل من هو غير إشكنازي «صابرا»، بما في ذلك أيضاً، المهاجرون الإشكنازيون. وقد شعرت بهذا الاحتقار والتمييز تجاهي شخصياً وتجاه أُسرتي، لكوننا مختلفين، ولأننا غير «صابرا».. والدي شعر أيضاً بالذل والإهانة والقمع، فقد عاش كل حياته هنا كانسان فقد كل دنياه، ولكن لعل هذا المكان ليس بالمكان المناسب للحديث عن هذا الموضوع المؤلم. ومع ذلك لا بد من القول أنه توفرت لي ولوالديَّ منذ البداية، بل وأُتيحت لنا، شروط بداية مريحة ووسائل للنهوض بأعباء ومتطلبات المعيشة أفضل وأكثر بكثير مما أُتيح للعائلات والأولاد الشرقيين، وسوف أتطرق إلى ذلك لاحقاً.

على أية حال، أخذ التمييز والاحتقار تجاه الشرقيين يتكشفان أمام ناظري كظاهرة جلية حاولت أن أناضل ضدها مذ كنت صبية، مع أولاد آخرين يمتلكون وعياً جنينياً بالعدالة الاجتماعية.

وقد سارت الأمور على النحو التالي: في صيف العام ١٩٦٢، وبعد مرور سنة على التحاقي بالمعهد، انتقلت وعائلتي للإقامة في سكن دائم. في تلك الفترة عرضوا على جميع المهاجرين الجدد الحصول مجاناً على شقق في «شيكون د» في بئر السبع،

يهود شرقيون يتعلمون جلوسا على الارض مطلع الخمسينيات في إحدى مدن «المعبراه»

لكنني لم أذهب إلى هناك.. فكيف حصل ذلك؟ كما أسلفت فقد كان لوالدي «وساطة» قوية ومجدية جداً لدى المؤسسة الإشكنازية المتنفذة، حيث نصحه أصدقاؤه المقربون بأن لا يأخذ شقة مجانية من شقق الوكالة اليهودية في «شيكون د» وأن يسعى بدلاً من ذلك للحصول على قرض من أجل شراء شقة صغيرة في حي جديد يدعى «شيكون هـ النموذجي». قالوا لأبي إن من الجدير به، لمصلحة إبنته–أي لمصلحتي–أن يأخذ بنصيحتهم، لأن السكن في حي جيد، مثل «شيكون هـ» الذي كان قيد الإنشاء، سيضمن لي مستقبلا أفضل..

وبالفعل قام والدي بجمع واقتراض مبلغ المال اللازم لشراء الشقة، من بعض الأقارب المقتدرين، وهو مبلغ لا بأس به، لم يكن بالتأكيد متاحاً في ذلك الوقت لأي شخص، وهذا ما ينطبق على «البقشيش» الذي حصل عليه أيضاً عن طريق علاقاته الجيدة مع المؤسسة. وهكذا وصلنا إلى «شيكون هـ» النموذجي مع عدد قليل من المهاجرين الإشكناز «المدللين» من أمثالنا. أما باقي المهاجرين «غير المدللين»، وخاصة الشرقيين، فقد ذهبوا إلى «شيكون د».

تجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً غير قليل من الإشكنازيين أيضاً أرسلوا إلى «شيكون د»، لكن غالبيتهم الساحقة غادرت المكان بعد فترة من الوقت وتحول الحي بالفعل إلى حي فقير، بل وصار رمزاً للفجوة الاجتماعية والغبن الصارخ للشرقيين في بئر السبع حتى يومنا هذا.

عندما إنتقلنا إلى الشقة الجديدة، كان الحي بأكمله عبارة عن موقع بناء ضخم غير مكتمل وغير مأهول بالسكان تقريباً.

أصدقائي الجدد تعرفت عليهم في المدرسة الابتدائية التابعة للحي والتي حملت إسم «يانوش كورتساك» وكانت المدرسة قائمة في «شيكون هـ» القديم، على تخوم الحي الجديد. إلتحقت بالمدرسة بعدما مضى على وجودي في البلاد مدة سنة، وكنت أتحدث العبرية جيداً، لكن بلكنة هنغارية.

في المدرسة كانت ثمة شعبة واحدة من الصف الخامس وقد أتى جميع طلاب الصف من حي «شيكون هـ» القديم، الذي كان مأهولاً بالقادمين في إطار موجات هجرة الخمسينيات التي ضمت مهاجرين من دول كثيرة، بينهم أقلية من الإشكنازيين، وخاصة من بولندا وهنغاريا، فيما كانت الأغلبية العظمى من دول شرقية عديدة: مصر، المغرب، العراق، تونس، ليبيا، اليمن والهند.

في تلك الفترة مررت بتجارب أخرى علمتني درساً مهماً في حياتي، درساً ساهم بدرجة كبيرة في تشكيل عالمي الروحي وبلورة وجهة نظري. وسأسوق هنا بعض الأمثلة فقط: أولاً، لقد غيروا لي إسمي إذ قررت المُدَرِّسَة ان إسمي الأصلي (كاترين) غير ملائم لأنه ليس إسماً يهودياً، ونظراً لأنني يهودية فإن الإسم الذي سينادونني به من الآن فصاعداً سيكون «يهوديت».

في السنة الأولى كنت المهاجرة الوحيدة بين الطلاب، وقد أُستقبلت في هذا الصف أيضاً بالترحاب من جانب أولاد من أصل شرقي، وخاصة من مصر والمغرب وتونس، والذي نشأت بيني وبينهم بصورة طبيعية علاقات صداقة وزمالة، تخللها زيارات متبادلة إلى البيوت. وقد رأيت بأم عيني كيف كان الطلاب الشرقيون يشعرون بالخجل عندما كان اباؤهم يتحدثون فيما بينهم باللغة العربية في حضوري، بل وكانوا يتوسلون إليهم ألا يتحدثوا بالعربية أمامي، ويرفضون الرد عليهم إذا خاطبوهم بالعربية. رأيت كيف كان أصدقائي، الأولاد المصريون، يسرعون إلى إقفال المذياع الذي يبث من مصر، عند دخولي إلى بيوتهم، علماً أنني كنت منجذبة إلى اللغة والموسيقى المصرية بالذات، وقد أحببت دائماً اللغات. شعرت أن ثمة هنا شيئاً غير سليم. وبدأت أسأل نفسي: لماذا يخجل هؤلاء الأولاد عندما يتكلم اباؤهم بالعربية؟! لماذا لا يريدون التحدث بالعربية في الوقت الذي أحاول فيه جاهدة عدم نسيان الهنغارية والرومانية!!

أذكر أنني تَعجَّبت لكون هؤلاء الأولاد لا يعرفون القراءة بالعربية، بل ولا يريدون تعلم أو معرفة ذلك، في الوقت الذي حرصت فيه من جهتي على مواصلة القراءة بالهنغارية والرومانية حتى لا أنسى. كنت فخورة باللغات التي عرفتها وواصلت التحدث مع أبي وأمي بالهنغارية حتى وفاتهما.

بعد مرور سنة أخرى جرى تعبئة الحي الجديد بالسكان بوتيرة سريعة، حيث جاء إلى المنطقة «شماليون» جدد [المقصود مهنيون من الطبقات العليا والمتوسطة قدموا من شمال ووسط اسرائيل] بينهم باحثون وعلماء جاءوا للعمل في المفاعل النووي (في ديمونا) وفي مركز دراسة النقب، وقضاة وأطباء وعدد من المهاجرين الأغنياء الذين قدموا من أميركا الجنوبية ومن جنوب افريقيا.

إلتحق بصفنا في المدرسة حوالي عشرة طلاب جدد دفعة واحدة، جميعهم «شماليون» ومهاجرون إشكنازيون، عندئذٍ تم توزيع الصف إلى قسمين (شعبتين)، والمدهش أو اللافت للإنتباه في هذا التوزيع أنه جرى وضع جميع الطلاب الاشكنازيين من الصف السابق، وكل «الشماليون» الجدد إضافة إلى عدد ضئيل جداً من الأولاد الشرقيين في صف واحد وهو الصف الأفضل (المتقدم)–السادس أ–في حين وضع باقي الأولاد، الشرقيون، في الصف الثاني (السادس ب).

كانت هناك بوابتان للمدرسة، إحداهما باتجاه حي «شيكون هـ» القديم، والثانية باتجاه «شيكون هـ النموذجي». وهكذا نشأ وضع في نهاية الدلالة والرمزية إذ بات من الواضح من هم الذين يأتون من البوابة الأولى ومن هم الذين يأتون من الثانية، بعبارة أخرى صار واضحاً من هو المحسوب علينا أو «منّا» وبالعكس.

في تلك الفترة مررت بتجارب أخرى علمتني درساً مهماً في حياتي، درساً ساهم بدرجة كبيرة في تشكيل عالمي الروحي وبلورة وجهة نظري. وسأسوق هنا بعض الأمثلة فقط: أولاً، لقد غيروا لي إسمي إذ قررت المُدَرِّسَة ان إسمي الأصلي (كاترين) غير ملائم لأنه ليس إسماً يهودياً، ونظراً لأنني يهودية فإن الإسم الذي سينادونني به من الآن فصاعداً سيكون «يهوديت».

لكن والديَّ لم يناديني أبداً باسم «يهوديت» بالنسبة لهما كنت وبقيت دائماً «كاتي» أو «كاتيكا»، كذلك فإن أفراد العائلة لا

كنت صبية مرهفة وذات نظرة ثاقبة، ولم أك بحاجة لوقت طويل حتى أدرك مغزى ما يدور من حولي.
بداية شعرت أن «الصابرا» الإشكناز يحتقرون كل من هو غير إشكنازي «صابرا»، بما في ذلك أيضاً، المهاجرون الإشكنازيون. وقد شعرت بهذا الاحتقار والتمييز تجاهي شخصياً وتجاه أُسرتي، لكوننا مختلفين، ولأننا غير «صابرا»..
والدي شعر أيضاً بالذل والإهانة والقمع، فقد عاش كل حياته هنا كانسان فقد كل دنياه،

زالوا ينادونني بـ«كاتي».

في بداية السنة الدراسية، وبمناسبة حلول عيد التوراة، سألت المُدَرِّسَة في الصف المقسوم إلى قسمين إذا كان هناك من يستطيع التحدث عن الطريقة التي يحتفلون فيها بعيد التوراة في الأماكن التي جاء منها الأولاد (الطلاب) الجدد، رفعت إصبعي وبدأت بالتحدث عن طقوس الاحتفال بهذا العيد في الكنيس الجميل الذي كان لجاليتنا في مسقط رأسي بمدينة «أوردآه».

أوقفتني المعلمة على الفور وقالت إننا الآن في إسرائيل وان علينا أن ننسى ما كان هناك، في البلدان التي هاجرنا منها، ولم تسمح بالحديث سوى للأولاد الصباريين الذين أتوا من شمال البلاد.

في نفس الفترة تقريباً، قالت لي فتاة «صابرا» أتت من «كفار يهوشاع»: «أنتم، المهاجرون الجدد، تحطون من مستوانا». لغاية الآن ما زلت أذكر وأحس بالألم والإهانة الجارحة لهذا الحديث وأمثاله، هذا رغم حقيقة أنني كنت أجيد، وأنا في الحادية عشرة، أربع لغات (الهنغارية، الألمانية، الرومانية والعبرية) كما كنت أجيد العزف على البيانو ورقص الباليه، ولعبة التنس عدا الحياكة والنسيج. كنت طفلة نبيهة، ذكية ومطلعة مقارنة مع من هم في عمري، ورغم كل ذلك جعلوني أشعر بالدونية وعدم الانتماء، مع أنني رغبت بكل جوارحي في أن أكون منتمية ومقبولة.

في السنة التالية، في الصف السابع، سعى بعض الأولاد من حي «شيكون هـ النموذجي» إلى تشكيل حلقة (مجموعة) نظرية بدون اشراك جميع طلاب الصف، أي بدون الأولاد من «شيكون هـ» القديم، أي الشرقيين ك تحت ذرائع وحجج شتى، في الوقت الذي لم يطرحوا فيه ايه حجة أو مشكلة تحول دون مشاركة الأولاد البولنديين القاطنين في نفس الحي، «شيكون هـ» القديم. عندئذ عبَّرتُ، أنا وولداً آخر، على الفور عن رفضنا الشديد لهذا المنطق وقلنا إننا لن نسمح بحدوث مثل هذا الأمر على الاطلاق، وأثرنا نقاشاً حول الموضوع في الصف، تشبثنا برأينا ونجحنا في مواصلة عقد جلسات نقاش مسائية في الصف بحضور ومشاركة الجميع.

فيما بعد لاحظت أن صفنا، أي الصف المنفصل، كان يحظى بأفضل المدرسين، وأن طلاب الصف الآخر (شبعة ب) كانوا يمضون جزءاً كبيراً من الوقت خارج الصف، حيث كان الأولاد الذكور يتلهون بلعب كرة القدم، فيما كانت البنات يساعدن في الأعمال في حجرة الطعام (حيث كان لا يزال متبعاً لدينا في تلك الفترة نظام مشروع التغذية) أو يجلسن في الخارج يتسلين بـ «نط الحبل» أو لعبة «الخمس حجارة» أو هكذا لا يفعلن أي شيء.

اضافة الى ذلك، لاحظت أن مُدرّسة صفّنا تهتم فقط بالأولاد «المميزين»، أي الإشكناز بين الشماليين، كما لو أنها كانت تعلمهم وحدهم، بينما كانت تهمل الأولاد الضعفاء في الدراسة، وغالبيتهم من الشرقيين الذين كانوا ينتقلون من سنة إلى أخرى دون أن يتعلموا شيئاً، ولم يكن هناك من يعبأ أو يكترث لهذا الوضع.

وقد عبر الأمر عن نفسه بشكل سافر من خلال طريقة «التجميع» [تجميع الطلاب في صفوف أو مجموعات متجانسة] التي أُتبعت لدينا في الصف السابع، حيث شكلوا ثلاث مجموعات

مصنفة على هذا الأساس، مجموعة في مادة اللغة العبرية، وثانية في الرياضيات ومجموعة ثالثة في مادة اللغة الإنكليزية، وقد وفرت هذه الطريقة ذريعة لتقديم تعليم نخبوي متطور لمجموعة مختارة تضم بين ١٢ الى ١٥ طالباً اشكنازياً، ولم تضم كل هذه المجموعة سوى بنت (طالبة) واحدة من أصل مصري، وكانت طالبة مؤهلة وجميلة أقامت عائلتها أيضاً في حي «شيكون هـ النموذجي». في باقي الدروس (المواد) التي تعلم فيها الصف معاً ـ مثل التوراة والتاريخ والجغرافيا ـ كان الدرس يتم باشتراك الطلاب الجيدين وباقي الطلاب طالما كانوا لا يعيقون بشكل واضح، أما إذا أعاقوا أو شوشوا فكانوا يخرجونهم إلى خارج الصف لينتهي الأمر عند هذا الحد. أذكر هؤلاء الأولاد الذين كانوا يجلسون في الصف كالأصنام، ثم ينهضون في مرحلة معينة ليغادروا مقاعدهم من تلقاء أنفسهم، ويخرجون من الصف دون أن يعبأ أحد بسؤالهم عن سبب مغادرتهم.

مدرستنا، التي كانت ثانوية شاملة جديدة، لم تتورع، على أبواب انتهاء الدراسة، عن طرد طلاب غير موثوق في مقدرتهم على اجتياز امتحانات «البغروت» [التوجيهي] وذلك بهدف احراز نسب نجاح مرتفعة، الأمر الذي كان من شأنه أن يحقق للمدرسة اعترافاً رسمياً واعترافاً بعلامات الحماية أو النجاح. غالبية ضحايا هذه الطريقة الانتقائية كانوا من الطلاب الشرقيين الذين نجحوا بطريقة ما في شق طريقهم إلى مسارات التعليم النظري أو الى مسارات مهنية مع شهادة بغروت.

احتججت وولداً آخر في الصف ضد الطريقة، ورغبنا في محاولة النضال ضد هذه الظاهرة، حيث قمنا بجهودنا الذاتية بتجنيد متطوعين من الطلاب لاعطاء دروس اضافية ـ مساعدة ـ في اللغة الانكليزية والحساب للأولاد من المجموعة المصنفة ب، أي الطلاب الشرقيين من حي «شيكون هـ» القديم، بالاضافة الى تقديم مساعدة في مواد أخرى. وأذكر أننا طالبنا بأن يتم امتحان هؤلاء الطلاب وترفيعهم إلى المجموعة أ، ولا أدري إن كنا نجحنا في ذلك أم لا. على أية حال فقد قمت طوال سنتين، ـ حتى نهاية الصف الثامن، ولاحقاً في الثانوية أيضاً ـ باعطاء دروس يومية لاثنتين من الطالبات، تمكنتا في نهاية المطاف من الوصول الى المدرسة الثانوية النظرية وانهائها بنجاح لتواصلا دراستهما في معهد لتخريج المعلمات.

فيما بعد، وعندما التحقنا بالثانوية، أصبحت الصورة أكثر وضوحاً لنا. فقد كانت نسبة ١٠٠٪ تقريباً من الطلاب الملتحقين بالمدرسة الثانوية النظرية هم من الأولاد الإشكنازيين. في حين أن الغالبية الساحقة من الأولاد الشرقيين، تمكنت في أفضل الأحوال من الوصول الى المدرسة الثانوية المهنية «عمال»، أو حتى الى مؤسسة أقل مستوى («عمال حنيخيم»)، أو انهم لم يواصلوا تعليمهم نهائياً.

مدرستنا، التي كانت ثانوية شاملة جديدة، لم تتورع، على أبواب انتهاء الدراسة، عن طرد طلاب غير موثوق في مقدرتهم على اجتياز امتحانات «البغروت» [التوجيهي] وذلك بهدف احراز نسب نجاح مرتفعة، الأمر الذي كان من شأنه أن يحقق للمدرسة اعترافاً رسمياً واعترافاً بعلامات الحماية أو النجاح. غالبية ضحايا هذه الطريقة الانتقائية كانوا من الطلاب الشرقيين الذين نجحوا بطريقة ما في شق طريقهم إلى مسارات التعليم النظري أو الى مسارات مهنية مع شهادة بغروت.

خلاصة القول، أستطيع أن أؤكد من مصدر مباشر بأنني عشت تجربة مأساة التمييز والغبن والقمع والاحتقار التي مر بها الشرقيون، بل ويمكن القول إنني قاسيت هذه التجربة ـ المأساة على جلدي. وباستطاعتي أن أستطرد وأقول بأنني شعرت أنني كنت أيضاً، بصفة شخصية، عرضة لمحاولات القمع بكوني مهاجرة جديدة، غير «صابرا» وغير منتمية لطلائع المهاجرين الأوروبيين. وقد سخر أبناء «الصابرا» القدماء، صغاراً وكباراً على حد سواء، من هويتي واحتقروا تعليمي وثقافتي. سخروا مني بسبب لَكْنَتي، وأخلاقياتي، بسبب ملابسي وتسريحة شعري.

كان الفارق يكمن في امتلاكي للقدرة والوسائل اللازمة للمواجهة والتحدي وشق طريقي بقوة إلى مركز المجتمع على الرغم من أنني لم أشعر أبداً بالانتماء حقاً. لقد أخفقت في شكل أساسي في الاندماج داخل حركة الشبيبة، التي حاولت الانخراط في صفوفها لكنني سرعان ما ابتعدت عنها. وفي هذا السياق لا أذكر أنه كان هناك في مخيمات المهاجرين أو في حركة «هشومير هتسعير» أولاد شرقيون في عمري، من المهاجرين الجدد. لذلك قمت أثناء وجودي في المدرسة الثانوية بتشكيل اطار أو جسم بديل لحركة الشبيبة، في بئر السبع، وكان جل اهتمام ونشاط هذا الاطار منصباً على مساعدة ورعاية تلاميذ صغار ممن يحتاجون إلى دروس خاصة، وقد قمت بهذا العمل التطوعي لمدة سنتين ونصف السنة، حتى نهاية المرحلة الثانوية.

في مرحلة ما رغبت جداً في أن أكون مثل الجميع، فأجبرتُ والدي رحمه الله على استبدال اسم عائلتنا من «هيلر» إلى «هَرْئيل»، حتى من دون أن أكلف نفسي عناء تفحص أو معرفة معنى الاسم الجديد، فقد كان كافياً بالنسبة لي أن رنين أو وقع هذا الاسم قد أعجبني لأنه بدا لي اسماً اسرائيلياً جداً ومتناغماً مع اسمي (الجديد) يهوديت. فيما بعد فقط أدركت بأنني لن أشعر مطلقاً بالانتماء حقاً، ولذا قررت الكف عن مثل هذه المحاولات في هذا الاتجاه وأن أكون ببساطة كما أنا. لاحقاً، وعندما أوشكت على الزواج، شعرت أن والدي زوجي يشعران بالخيبة لكون ابنهما تزوج من مهاجرة ابنة مهاجرين جدد وليس ابنة شخص من وسطهم أو من أمثالهم. لقد أوحيا لي بشكل واضح أن انتمائي ينطوي على إشكالية ما، فقد كانا بالتأكيد يفضلان ابنة رئيس أركان أو جنرال سابق عروساً لابنهما.

عندما ذهبت للاقامة في الشمال، واختلطت أكثر بـ «الشماليين»، وربما أصبحت مقبولة ومنتمية أكثر، أدركت بشكل أفضل كم كان حجم القطيعة والفجوة العقلية والعاطفية، بين ما كان يسمى في وقت ما «اسرائيل الأولى» و«اسرائيل الثانية»، كبيراً وهائلاً وحتى غير قابل تقريباً للجسر عليه. أدركت إلى أي حد يجهل الكثيرون من الناس والأصدقاء تماماً، حتى أصحاب النوايا الحسنة والحس المرهف منهم، حقيقة ما حدث في تلك الفترة، يجهلون حقاً الأسباب التي ولّدت السخط والغضب الهائلين لدى اليهود الشرقيين ازاء المعاملة المهينة والتمييز المجحف الذي عانى منه الكثيرون منهم على يد النخب الاشكنازية، حينما كانوا يخطون خطواتهم الأولى والصعبة في المجتمع الاسرائيلي المُتكوِّن. لغاية اليوم لا يدرك الكثيرون من زملائي عمق الاهانة وشدة الألم والصدمة، وبالأساس لا يدركون الى أي مدى كانت ظواهر التمييز والغبن تجاه الشرقيين، حقيقية وبنيوية وليست مُتخيّلة على الاطلاق، وانها تنبع من ذات النظرة المحتقرة المتعجرفة والاستعلائية والمتنكرة من جانب المؤسسة الاشكنازية تجاه «الآخر»، كل «آخر»، ولكنها كانت تجاه الآخر الشرقي، تجاه اليهودي ـ العربي بشكل خاص، أكثر حدة وأشد فظاعة.

إنهم لا يدركون بأن النظرة إلى الآخر العربي والنظرة إلى الآخر اليهودي ـ العربي، مصدرهما واحد ألا وهو نفس الجذر المريض، أو نفس النبع العكر، وذات التوجه الكولونيالي المعروف القائم على نظرة «شعب الأسياد» إلى شعب البلاد الأصلي «المتخلف». وعليه، ينبغي النضال في آن واحد ضد هذين التوجهين اللذين ليسا في الحقيقة سوى توجه واحد وبالتالي لا يمكن الفصل بين النضالين.

إن الكثيرين من أصدقائي، وتلك حقيقة لا أدري سببها بالضبط، يجدون صعوبة في فهم ذلك.

هامش

(١) Mayflower هو بالأصل اسم السفينة التي حملت على متنها سنة ١٦٢٠ أوائل (آباء) المهاجرين (Pilgrim Fathers) من انكلترا إلى الولايات المتحدة الأميركية، ويقصد باستخدامه هنا (في السياق الاسرائيلي) الاشارة الى طلائع المهاجرين الصهيونيين الأوروبيين.

المقال مترجم عن العبرية